نظرة فى جانب من نظام التعليم فى السويد

عند ما قدمت السويد ، لم يلفت نظرى — كما كنت أتوقع من قبل — ما تشتهر به من بحيرات متجمدة وأنهار جارية ومبان منسقة ، وغير ذلك من مناظرها الشهيرة الخلابة ، بقدر ما لفت نظرى أبناؤها بقاماتهم المديدة ودلائل الصحة والنشاط المتبدية على وجوههم وفى حركاتهم ، ولم يطل عجبى مما يستمتعون به من صحة الجسم والعقل معاً بعد أيام عدة من الإقامة بينهم ودراسة أحوالهم وزيارة مدارسهم ومجتمعاتهم ، وقد تحقق عندى بعض ما قرأته عنهم قبل سفرى إلى بلادهم من أنهم أطول الناس قامات وأعمارا ، وأقدرهم على العمل والإنتاج وطلب الإجادة فى كل مجال . . .

كان الهدف الأول من ذهابى إلى السويد هو زيارة معاهدها العلمية ودراسة نظام التربية والتعليم فيها دراسة تتيح لى أن أقارنه بنظم التربية والتعليم فى غيرها من البلاد التى خبرت . وفى بلد ضرب فى المدنية بقسط وافر يتسع الحديث عن هذا المجال الخصب ويتفرع . ولو أردت الكلام عن كل ما رأيت هناك — وكله شيق مفيد — لطال بنا الحديث . ولكنى سأجمل القول فى ناحية أو اثنتين مما ليس لنا فى الكويت به عهد .

يشتهر النظام التربوى فى الممالك الاسكندنافية ، وبالأخص الدنمرك والسويد ، بنوع من المدارس يسمونه هناك « مدارس الشعب العالية » . وتكاد تنفرد هذه الممالك بهذا النوع من المؤسسات التعليمية التى لاتزال بعض الدول تعدها من ترف التعليم ، بينما تعدها دول أخرى من ضرورات المجتمعات الحديثة التى تحرص فيها الهيئات التعليمة على أن توفر لطالب المعرفة حاجته منها مهما كانت سنه أو مركزه المالى أو الأدبى .

ولا تشذ السويد عن كل البلاد المتحضرة فى أن التعليم بها إلزامى إلى سن معينة ، توفر بعدها أنواع شتى من الدراسات الاختيارية لمن يريد أن يأخذ منها بطرف قليل أو كثير ، ما دامت مواهبه العقلية تتيح له الاستفادة من مثل هذه الدراسة . والسويد كذلك تؤمن بالفكرة التربوية السليمة التى أخذت تسود الآن . من وجوب تقسيم التلاميذ حسب مقدرتهم العقلية وسنهم الزمنى معاً ، فقد اتضح ضرر حشر تلاميذ مختلفى السن فى فصل واحد تحت إشراف مدرس واحد . ومن هنا سادت الفكرة الحديثة فى المدارس الأوربية من ترقية التلاميذ — إلى حوالى سن الحادية عشرة — كل عام فى مدارسهم ، ما دامت المدارس واثقة من أن التلاميذ يدرسون ما يمكنهم فهمه وتحصيله ، على أيدى مدرسين يفهمون نفسيات واتجاهات التلاميذ الذين تحت أيديهم بمقدار مايفهمون المواد التى يدرسونها لهم . وحتى فى المدارس الثانوية ليس هناك إلا الامتحان النهائى فحسب ، مما جعل شبح الامتحانات المخيف الذى يقض مضاجع الأطفال يختفى أو يكاد ، فقد صاروا يدرسون لأنهم يحبون ويرغبون فيما يدرسون ، وليس لأنهم يرجون النجاح فى الامتحان أو يخشون السقوط .

لاحظ المربون فى الدنمرك قبل سنين كثيرة أن التلاميذ الذين تضطرهم الظروف بعد سن التعليم الإلزامى إلى مغادرة المدرسة للعمل يعود إليهم الحنين للدراسة بعد سنوات تقل أو تكثر ، ولكنهم لا يجدون مجال الدراسة المنظمة مفتوحاً أمامهم ، ومن هنا نشأت فكرة إقامة معاهد أو مدارس الشعب العالية . .

ولأصور للقارىء وضع هذه المدارس وجوها المادى والمعنوى ، سأحاول فى إيجاز ، وصف إحداها ، وقد زرتها وقضيت فيها وبين أساتذتها وطلابها يوماً حافلا بكل جديد طريف .

مدرسة داخلية تقع على ربوة هادئة فى ضاحية قروية

من العاصمة « ستوكهلم » ، ليس بناؤها فخماً ولكنه بناء نظيف أنيق . يقبل فيها الطلبة والطالبات ممن يتراوح سنهم بين السادسة عشر والثلاثين . والمدرسة مجانية ، ومدة الدراسة فيها خمسة أشهر شتاء كل عام للجنسين وثلاثة فى الصيف للسيدات فقط ، وللطالب أن يدرس عاماً واثنين ، وثلاثة إذا أراد .

استقبلنا العميد على الباب ، وطاف بنا على الفصول ، وقد نظمت على شكل حلقات دراسية يجلس الأستاذ على رأس الحلقة وحوله الطلبة يبحثون ويتناقشون ويستمعون . وأدهشتنا الحرية التى يعالج بها المدرسون موضوعاتهم ، واستطرادهم فى البحث ، حتى أخبرنا العميد أن منهج الدراسة قد نظم بحيث تكون هناك دروس قليلة إجبارية لكل طالب وأخرى عديدة متنوعة يختار الطالب منها مايريد . وتستمر هذه الدروس من الصباح الباكر إلى ما بعد الغروب . وهؤلاء الطلبة قد جاءوا مختارين راغبين فى الاستفادة ، وقد تركوا أعمالهم ووظائفهم لكى يشبعوا نهمهم العلمى فى هذه الأشهر الخمسة أو الثلاثة ، ولذا فإن الحوافز النفسية لديهم متوافرة ، تدفعهم للعمل أكثر مما يدفعهم الامتحان أو ضغط النظام والقانون .

وفى المدرسة مسرح ومعبد ، وفيها حياة اجتماعية راقية يشرف على تسييرها من وراء الستار العميد ومساعدوه ، حتى إذا قضى هؤلاء الطلبة هذه الفترة من حياتهم عادوا إلى أعمالهم أكثر قدرة على إجادتها وأشد مراساً فى الكفاح من أجل أهدافهم وأوسع مداركه وأكثر خبرة بالحياة.

وأخذنا العميد بعد ذلك إلى جناح من المدرسة ، وقال لنا ونحن نجتاز ردهاته : هذا بيت الضيافة . . .

وبيت الضيافة هذا أشبه بفندق صغير فى ركن ريفى هادىء ، يقبل فيه الأدباء والفنانون ورجال الأعمال الذين يرغبون فى الاستراحة والاستجمام فترة من الزمن فى جو علمى شعرى هادىء . وعلى أن أجور السكنى والغذاء فى هذا المضيف مثلها فى الفنادق العادية فإن الاقبال عليه شديد من الطبقة المستنيرة . وهدف المدرسة الثقافى من إنشاء هذا المضيف ذوجانبين ؛ أن يستفيد النزلاء من مكتبة المدرسة الكبيرة ومراجعها ومعداتها ومن المحاضرات التى تلقى على الطلبة ومن النشاط الاجتماعى الذى تمتاز به مثل هذه المدارس ، وأن يستفيد الطلبة من هؤلاء النزلاء المثقفين الذين ربما لم تتح لهم ظروف أعمالهم الاختلاط بمثلهم. وهكذا يكوّن الطلبة ونزلاء المضيف مجتمعاً تسوده روح التعاون العلمى وانعدام نظام الطبقات سواء فى شكله المادى أو الأدبى . ورغم أن مدارس الشعب ليس فيها جميعاً مثل هذا المضيف فإن هذه الفكرة الجريئة قد نجحت نجاحاً ملموساً .

وقبيل انتهاء الزيارة دعانا العميد لتناول الشاى فى منزله ، فإنه وجميع الأساتذة يسكنون على مقربة من المدرسة ، وهناك عزف لنا لحناً على البيان ، وغنت لنا زوجته أغنية سويدية طربنا لها وإن لم نفهم منها شيئاً ، وأردنا مداعبة العميد فقلنا له : لعل شغفك بالموسيقى هو الذى دعاك إلى أن تجعله جزءاً حيوياً من منهج مدرستك ؟ . فقال : إن دروس الموسيقى جزء ضرورى فى منهج جميع المدارس بالسويد ، وهى لمثل هذه المدرسة أكثر ضرورة ،

عند ما أخذت السيارة تنهب بى الطريق من ضاحية « سجتونا » إلى استوكهلم بعد هذه الزيارة الممتعة ، كنت أسائل نفسى لم لم تمنع قلة السكان فى هذا البلد من أن يستمتع باستقلاله وسيادته ، ولم لم تقف به موارده عن أن ينتج ما يحتاجه شعب متحضر ؟ ، وكيف لم تمنع برودة طقسه من أن ينتفع الشعب بكل شبر من مساحته ؟ ، وكيف استطاع أن يحقق هذا المستوى الممتاز من الحياة لأفراده بعد أن أقام هذا النظام التعليمى الممتاز المبنى على أسس تربوية متينة رائعة ؟ . . . وأثار فى نفسى هذا التساؤل أسئلة أخرى ليست مما يهيج النفس أو يلذ للقارىء أن يستمع إليها ، وليست مما يقع تحت الحصر لسوء الحظ . . .

هذا لون واحد من ألوان كثيرة فى مجال التعليم رأيتها بالسويد ، وقد كنت أود أن أتحدث إلى « البعثة » عن نواحى أخرى تشتهر بها هذه البلاد كذلك وبالأخص مدارس الألعاب السويدية . أو أن أتحدث عن المدارس الخاصة بالأطفال الشواذ ، أو عن معاهد التجارب العلمية ، أو عن جامعاتها ومعاهدها العالية ومكاتبها العامة ، أو غير هذا أو ذاك مما لنا فيه مجال واسع للاستفادة والاقتباس والعبرة ، فعسى أن تكون لنا إلى ذلك عودة إن شاء الله .

لندن — عبد العزيز حسين